# موقف محمد على من أشراف مكة
# (١٢٢٦ - ١٢٤٣هـ)/(١٨١١ - ١٨٢٧م)

د . حسام عبد المعطى

باحث بمركز تاريخ مصر المعاصر

## موقف محمد على من أشراف مكة
## (١٢٢٦ - ١٢٤٣ هـ) / (١٨١١ - ١٨٢٧م)

على الرغم من تعدد الدراسات حول حروب محمد على في شبه الجزيرة العربية ، لكن أيا من هذه الدراسات لم تهتم بفهم وتحليل السياسة العامة التى اتبعها محمد على تجاه الأشراف في الحجاز[١] ، فقد غير محمد على تغييراً جذرياً السياسة التى اتبعتها الدولة العثمانية دوماً تجاههم ، وبالتالى فسوف تركز هذه الدراسة على إشكالية فهم البناء الداخلى لنظام الحكم الأسرى في مكة ، وموقف الدولة العثمانية من هذا النظام ، وعلاقته بآل سعود ، ولماذا تصادم محمد على مع مؤسسة الحكم في الحجاز رغم التسهيلات العديدة التى قدمها له الشريف غالب ؟ وكيف ومتى تخلص محمد على من بنى زيد القابضين بقوة على السلطة في مكة ، ولماذا جاء إلى السلطة ببنى عون على وجه التحديد ؟ وما هى الأطر والقوانين التى حكمت العلاقة بين باشا مصر وأشراف الحجاز ؟

وقد خضع الحجاز لسلطة الأشراف منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى حين تولى أبو محمد جعفر الموسوى «مؤسس العائلة الشريفة الأولى» حكم الحجاز حيث دار صراع مرير حول منصب الشرافة بين أسر ثلاث ، هى الأسرة الموسوية (بنى موسى) والأسرة السليمانية (بنى سليمان) ، والأسرة الهاشمية ، ولم تلبث أن تمتعت الأسرة الأخيرة بشبه استقلال في الحجاز في القرن الحادى عشر الميلادى وعلى وجه التحديد على عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ظهرت أسرة رابعة هى الأسرة الإدريسية ومؤسسها هو الشريف قتادة بن إدريس الذى حكم مكة خلال الفترة ٥٩٧- ٩١٦هـ / ١٢٠١ - ١٢٢٠م[٢] ، ثم تداول أبناؤه وأحفاده الحكم طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وكذلك الربع الأول من القرن الخامس عشر ، حيث استطاع فرع من الأسرة الإدريسية وهو بيت بركات بن حسين أو بركات الأول أن يتولى حكم مكة (٨٢٩ - ٨٥٩هـ / ١٤٢٢ - ١٤٥٢م) وما لبث حفيده بركات بن محمد بن بركات أن اعترف بالسيادة العثمانية على الحجاز[٣] .

وقد شهد مركز الشرافة ازدهاراً حينما تولى إمارة مكة الشريف أبو نمى بركات (٩٣٢-٩٩١هـ/ ١٥٢٥-١٥٨٤م) حيث قام بوضع قانون[٤] عرف باسمه أعطى للأشراف سلطة قوية على الحجاز ، ومنذ ذلك الوقت حتى انهيار نظام الشرافة في مكة على يد آل سعود في نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، تعاقب على شرافة مكة ثلاثة عائلات من نسل أبى نمى ، الأولى هى ذوى زيد ، والثانية ذوى بركات ، والثالثة ذوى عون ، حيث استقلت العائلة الأولى بالحكم وحدها ما يقرب من قرن من الزمان ، ثم نافستها عائلة ذوى بركات منذ العام ١٠٨٢هـ/١٦٧١م . وظل منصب إمارة مكة ينتقل من زيدى إلى بركاتى حتى استقل به آل زيد دون آل بركات منذ عام ١١٣٦هـ/١٧٢٤م ، وظل بأيديهم إلى أن ضم محمد على الحجاز فدفع بها إلى ذوى عون كما سنرى[٥] .

ومنذ أن دخل الحجاز تحت السيادة العثمانية طواعية ، بعد أن نجح السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) في ضم مصر إلى الدولة العثمانية ، ظلت الدولة العثمانية انطلاقاً من رغبتها في المحافظة على موقعها الريادى في العالم الإسلامى تتصرف باحترام كبير تجاه الأشراف حتى أن السلاطين كانوا يظهرون تسامحاً كبيراً تجاههم على اعتبار أنهم من سلالة النبى ( ﷺ ) ، فحافظ العثمانيون على استقلال الحجاز الذاتى استقلالاً كاملاً ، واعترفوا بوضعه الخاص وبالحقوق الموروثة للأسرة الهاشمية في حكمه ، فلم يكن العثمانيون يتدخلون في شئون الأشراف الداخلية ولا سيما في مسألة وراثة العرش ، بيد أنهم اعتادوا تقديم الدعم إلى من يطالب به ، وهكذا قنع العثمانيون بحكم الحجاز جنباً إلى جنب مع الأشراف ، فكانت السلطنة تصدر الفرمانات تبارك فيها تولى الأشراف أمراء على مكة . كما أقرت النظام المملوكى الخاص بتبعية جدة للإدارة السياسية في مصر وبتعيين نائب في جدة سمى فيما بعد صنجق جدة ثم باشا جدة بعد ذلك[٦] .

لقد وجدت الدولة العثمانية أن أنسب من يستطيع إدارة شئون الحجاز البعيد عن مركز الدولة هو والى مصر ، وقد أبلغت اسطنبول أمير مكة المكرمة بقرارها هذا ، وأكدت على أمير مكة بضرورة إبلاغ القاهرة عن كل أمر يخص مكة والمدينة

وإرسال المعلومات بهذا الخصوص إلى اسطنبول في الوقت نفسه ، ولكن أمراً واحداً ما كان السلطان العثمانى يقبل التفريط فيه وهو الاحتفاظ بمركزه الدينى في العالم الإسلامى حيث يدعى له في المساجد بصفته خادم الحرمين الشريفين وخليفة المسلمين ، ولكى يحتفظ السلطان بمركزه هذا وبولاء الأشراف جميعاً ورؤساء القبائل العربية كان عليه أن يبعث إليهم سنوياً بالخلع والمرتبات يحملها إليهم أمراء الحج المصرى والشامى ، فضلاً عما كانت تحمله إليهم السفن المصرية من مؤن وغلال لتوزيعها على أهالى الحجاز .

وما كاد الشريف غالب بن مساعد يخلف أخيه الشريف سرور [٧] في حكم الحجاز في سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م ، ويستقر في الإمارة حتى كان آل سعود قد استطاعوا توحيد إقليم نجد في وحدة سياسية واحدة [٨] ، وبإتمامهم هذا العمل أخذوا يوجهون جهودهم الحربية إلى ميادين أخرى خارج حدود نجد ، وأمام الانتصارات التى راح يحققها آل سعود في الحسا ، وفي أنحاء شبه الجزيرة العربية الأخرى ، أدرك الشريف غالب ضرورة التحرك عسكرياً ضدهم وإلا فسوف يبتلعون إمارته ، فأعلن الشريف غالب الحرب على السعوديين في سنة ١٢٠٥هـ /١٧٩٠م ، حيث دخل في العديد من المعارك العسكرية مع آل سعود مني في أغلبها بالهزيمة [٩] ، وفي ٧ محرم ١٢١٨هـ / ٣٠ أبريل ١٨٠٣م استطاع آل سعود دخول مكة بعد حصار استمر شهرين [١٠] ، ثم حاصروا جدة [١١] ، إلا أن استبسال الشريف وقوة أسوار جدة وعدم وجود قوة بحرية للسعوديين ، وقوة الأسطول البحرى للشريف غالب كانت وراء فشلهم في الاستيلاء على جدة ، وانتهز الشريف غالب عودة سعود للدرعية وعاود الهجوم على مكة وأعادها لسيادته ، حيث كان آل سعود قد عينوا أخيه الأكبر الشريف عبد المعين حاكماً عليها من قبلهم فقام عبد المعين بتسليمها مرة أخرى لأخيه الشريف غالب ، مما يعكس مدى رسوخ الحكم الشريفى في مكة لدرجة جعلت آل سعود يبقون على هذا النظام رغم عدائه لهم ، فقد كان النسب يعطيهم الصبغة الشرعية للحكم ، حتى أنه لم يكن يتصور حكم الحجاز إبان هذه الحقبة بدون حكم الأشراف ، لذلك لم يستطع آل سعود استبعاد الأشراف من حكم

الحجاز ، وهو نفس الوضع الذى وجد محمد على نفسه فيه فيما بعد كما سنرى[١٢] .

وقد عاود السعوديون محاصرتهم لمكة ، وأمام هذا الحصار عقد الشريف غالب في ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٢٠هـ / ٢٩ يناير ١٨٠٤م صلحاً مع آل سعود حيث أعلن بموجبه تبعيته لآل سعود ، وقبل سعود بقاء الشريف غالب في حكم الحجاز تحت سيادته ، وفي ١٢٢١هـ / ١٨٠٥م قرر السعوديون وقف دخول موكبى الحج المصرى والشامى وقاموا بإحراق المحمل المصري[١٣] ، وقد أدى منع السعوديين لوصول قوافل الحج من مصر والشام إلى المدن المقدسة إلى اهتزاز العالم الإسلامى ، وكان ذلك تحدياً كبيراً لهيبة وقوة الدولة العثمانية التى كانت تبنى جزءاً كبيراً من نفوذها وهيبتها على سيادتها على الحرمين الشريفين ، وعلى رعايتها لقوافل الحجيج ، مما جعل تدخلها أمراً محتوماً[١٤] . ولم يجد السلطان العثمانى مفراً بعد أن فشل ولاة بغداد ثم الشام في القضاء على السعوديين وإعادة سيادة الدولة على الحرمين إلا تكليف محمد على والى مصر بهذه المهمة ، وبعد إلحاح مستمر من جانب الدولة لمدة أكثر من خمس سنوات استجاب الباشا لنداءات وتوسلات السلطان لإنقاذ الحجاز وإعادة هيبة الدولة[١٥] .

ففي ١٢ رمضان ١٢٢٦هـ/٣٠ سبتمبر ١٨١١م وبعد استعدادات وتجهيزات استغرقت أكثر من عام قام الباشا بإرسال أولى حملاته على الحجاز تحت قيادة ابنه طوسون [١٦] . فقام محمد على بإرسال ٧٠٠٠ جندى في ٦٣ سفينة من السويس بهدف التوجه إلى ينبع ، كما توجه مع طوسون ثلاثة آلاف جندى . ويذهب البعض إلى القول بأن الدولة العثمانية استهدفت من توجيه محمد على إلى الحجاز التخلص من السعوديين أو التخلص منه . وقد يكون ذلك صحيحاً إلى حد ما غير أن محمد على لم يذهب إلى الحجاز إلا بعد أن تأكد من قوة مركزه في مصر ، وكل الدلائل تؤكد على أن الباشا كان سيذهب إلى الحجاز إن عاجلاً أو آجلاً فقد كانت الدولة القائمة في مصر تعتبر الحجاز منطقة حيوية للغاية بالنسبة لها سواء من الناحية الدفاعية أو الهجومية ، فمن الثابت أن كل سياسة دفاعية وهجومية للدولة

القائمة في مصر كانت تتخذ مجالها في شمال البحر الأحمر وجنوب بلاد الشام ، هذا بالإضافة إلى أن الحجاز كان بوابة مصر لتجارة الشرق الغنية (التوابل - البن) التى كانت السبب في الثراء الاقتصادى المصرى في العصرين المملوكى والعثمانى ، حيث ظل ميناء جدة هو المصدر الرئيسى لتجارة مصر مع الهند ، فكانت هذه التجارة تمثل ما لا يقل عن ٣٦٪ من الحجم الإجمالى لتجارة مصر الخارجية في أواخر القرن الثامن عشر [١٧] ، وبالتالى فقد كان الباشا ذاهباً إلى الحجاز لا محالة ، بخاصة أنه جاءته الفرصة ليصبغ وجوده في حكم مصر بالمظهر الدينى كمخلص للحرمين الشريفين ، مما يسهم في تقوية مركزه في مصر .

وبادئ ذى بدء علينا أن نؤكد أن الشريف غالب رغم خضوعه للتبعية السعودية لم تفتر همته دائماً عن طلب المساعدة من الدولة العثمانية لطرد آل سعود من الحجاز[١٨] . وعلينا أن نتساءل عن العوامل التى كانت تدفع الشريف إلى خلع طاعة آل سعود ، وقبول السيادة العثمانية ، فقد كان وضع ولاية الحجاز في ظل الدولة العثمانية وضع الولاية الأكثر امتيازاً بين ولايات الدولة ، فكل ولايات الدولة العثمانية تقريباً بها العديد من الأوقاف الضخمة الموقوفة على أهالي الحرمين الشريفين ، وعلى أشراف مكة بوجه خاص[١٩] ، وكان معنى خضوع الحجاز للسيادة السعودية حرمانه من هذه الموارد الاقتصادية الكبيرة [٢٠] ، ناهيك بالطبع عن توقف وصول قوافل الحجيج وما كان يصحبها من نشاط تجارى ضخم[٢١] ، كما كان آل سعود يسعون للتدخل في شئون الشريف الداخلية فعملوا على تقليص نفوذه ، فانتزعوا منه الطائف وأعطوها لعدوه عبد الرحمن المضايفى[٢٢] ، كما عملوا على انتزاع أهم مصدر لقوة الشريف وهو القبائل العربية ، فعملوا على إخضاعها لنفوذهم المباشر ، فأخضعوا قبائل بنى حرب[٢٣] - أقوى القبائل الحجازية لنفوذهم -[٢٤] هذا في الوقت الذى كانت الدولة العثمانية تكتف بذكر اسم السلطان في الشعائر المقدسة والمسجد الحرام دون تدخل كبير في شئون الأشراف الداخلية[٢٥] .

وحين ترامت أنباء الاستعدادات لحملة محمد على باشا على الحجاز إلى أمير مكة الشريف غالب بن مساعد تبادل الرسائل مع الباشا يخبره فيها بأنه اضطر آسفاً

تحت الضغط والتهديد من جانب السعوديين ، وعدم مساعدة الدولة العثمانية له إلى الخضوع لسلطانهم ، وأمده بتقرير عن قوتهم ومركزهم بين القبائل العربية وأفضل الطرق للهجوم[٢٦] . وكان محمد على يدرك مدى قوة موقف الشريف غالب في الحجاز ، كما كان يعرف مدى نفوذه على القبائل العربية ، وكان يدرك أن جيوشه لن تستطيع تحقيق النصر دون مساندة هذه القبائل ، كما كان في أشد الحاجة إلى أسطول بحرى لنقل الجنود والذخيرة والغلال إلى ميدان المعارك فى الحجاز[٢٧] ، وكان الشريف غالب يمتلك إحدى وثلاثين سفينة في البحر الأحمر[٢٨] ، لذا عمل محمد على على إرضاء واكتساب ود الشريف غالب لإرسال سفنه إلى السويس حتى تشارك في عمليات نقل الجنود والذخيرة ، وبالفعل فقد نجح الباشا إلى حد كبير في ذلك حيث أرسل الشريف غالب عشرة سفن من سفنه إلى السويس[٢٩] .

لم يكن الشريف غالب واثقاً تماماً من قدرات محمد على على هزيمة الجيوش السعودية بخاصة بعد الهزائم التى لقيتها جيوش ولاة بغداد والشام على أيديهم . لذلك لم يرد على المبادرة بإعلان تحالفه مع القوات المصرية . بل أراد أن يمسك العصا من الوسط فكان يكاتب ويراسل محمد على يدعوه إلى غزو الحجاز لإنقاذه من يد السعوديين ، وبقى في نفس الوقت يعلن ولاءه لآل سعود[٣٠] . وعند وصول القوات المصرية إلى ينبع - وكانت ضمن أملاك الشريف - لم يبادر الشريف إلى تسليم المدينة إلى القوات المصرية بل أمر قائد قواته العسكرية الشريف شنبر بأن يقاوم الحملة المصرية ما أمكن إلى ذلك سبيلاً ، ثم يقوم بالانسحاب ، وأرسل الشريف يعتذر للباشا عن موقف قائد جيوشه متعللاً بعدم فهمه للأوامر الصادرة إليه[٣١] . وعندما تقدمت القوات المصرية إلى المدينة أخلاها السعوديون ، حيث دخلتها قوات طوسون دون قتال ، وعندما تقدم طوسون باتجاه مكة وعند ممر الصفراء فاجأت القوات السعودية طوسون بالهجوم من الجبال مما أدى إلى هزيمة القوات المصرية هزيمة ضخمة ، فقد فيها طوسون خمسة آلاف من جنوده البالغين ثمانية آلاف[٣٢] ، وارتد طوسون وما بقى معه من قوات إلى ينبع وانسحبت القوات المصرية الموجودة في الوجه والمويلح ، ولولا خطابات محمد على إلى طوسون ورجاله

بالثبات في ينبع ووعدهم بالإمدادات والأموال إضافة لعدم وجود قوة بحرية للوهابيين في البحر الأحمر ، لانسحبت القوات المصرية بسبب صعوبة موقفهم في الحجاز[٣٣] .

وهكذا وعند هزيمة القوات المصرية ظل الشريف غالب على ولائه للسعوديين الذين عاملوه كحليف لهم ، وطلبوا إليه تسليم أسطوله البحرى في البحر الأحمر للقيام بمحاولة بحرية لتدمير أسطول الباشا في ينبع وقطع خط الرجعة على قواته في الحجاز ، فأعدوا ثمانية عشرة سفينة من سفن الشريف غالب ، وصمموا على مهاجمة ميناء ينبع واسترجاعه والقضاء على السفن المصرية الموجودة به ، إلا أنهم فشلوا في ذلك[٣٤] .

لم يكن الشريف غالب يعرف ما إذا كانت جيوش الباشا ستنسحب إلى حيث لا رجعة بعد هزيمة ممر الصفراء أم أن محمد على مصمم فعلياً على محاربة السعوديين وإخراجهم من الحجاز ، لذلك فقد عمل على جس نبض طوسون والباشا في القاهرة برسالة أرسلها في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٦م يعرض عليه التوسط للصلح مع السعوديين ، وكان رفض الباشا وتصميمه على محاربة السعوديين دليلاً كافياً للشريف غالب لتقديم المساعدة لقوات الباشا[٣٥] ، فكانت أولى نصائحه لطوسون باستمالة القبائل العربية الضاربة بين ينبع والمدينة فأغراهم بصناديق الأموال والكساوى ، كما خصص لهم الرواتب السنوية ، فنجح في استمالة قبائل بنى حرب وجهينة وعمران وبنى عقبة وبنى واصل[٣٦] ، كما أمر الشريف العديد من سفنه بالتوجه إلى السويس لحمل جنود الباشا ومؤنه .

وعندما وصلت إلى طوسون الإمدادات من مصر بقيادة صالح أغا السلحدار وبمساعدة العربان استطاع طوسون الاستيلاء على المدينة في ذي القعدة سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م بعد محاصرته لها حيث لعب الشريف غالب دوراً كبيراً في استسلام حاميتها ، وعندما وصل الأمير سعود للحج لحظ ميول الشريف غالب إلى الجيوش المصرية ، فقام بالحج مسرعاً وعاد إلى عاصمة حكمه وقبل خروجه من الحجاز كانت تعليماته لقواده بالانسحاب من الحجاز في حالة انضمام الشريف غالب والقبائل العربية في الحجاز إلى القوات المصرية[٣٧] .

وفي أوائل محرم سنة ١٢٢٨هـ / ٤ يناير ١٨١٣م طلب الشريف غالب من طوسون إرسال السفن من ينبع إلى جدة حيث قام بتسليمها إلى القوات المصرية . ولم ينس الباشا أن يحذر صالح أغا من الشريف غالب حيث كتب إليه رسالة يطلب فيها منه إطاعة أوامر الشريف وأن لا يعمل شيئاً بدون موافقته طالباً منه أن يدفع بهذه الرسالة إلى الشريف غالب ، وهو ما جعل الشريف يأمن جانب الباشا . فيقول الشريف غالب في رسالته للباشا رداً على ذلك «فازدادت المحبة الهاشمية إلى ذاتكم الكريمة من جراء اعتماد معاليكم بهذه الدرجة علينا ومن الإشعار والتصريح بذلك الأمر»(٣٨) . على العموم ففور دخول القوات المصرية جدة انسحبت القوات السعودية من مكة والطائف إلى العبيلا(٣٩) .

لقد كان موقف الشريف غالب وعربان الحجاز من العوامل الرئيسية في سهولة وقوع جدة ومكة والطائف في أيدى طوسون ، فقد أدرك السعوديون مخاطر الدخول في حرب مع القوات المصرية بعد انضمام الشريف غالب والقبائل العربية في الحجاز إلى القوات المصرية . وهكذا لعب الشريف دوراً كبيراً في عودة المدن المقدسة إلى السيادة العثمانية مرة أخرى ، كما قام الشريف مع قوات طوسون بمهاجمة القوات السعودية المتمركزة حول مدينة الطائف ، حيث استطاعوا أسر عثمان المضايفى في شوال ١٢٢٨هـ / سبتمبر ١٨١٣م .

وبعد وصول أخبار فتح الحجاز للقاهرة واسطنبول أقيمت الاحتفالات وأنعمت الدولة على الباشا بالنياشين والهدايا وأعطى السلطان الحق للباشا في عزل وتعيين من يراه مناسباً لإدارة شئون الحجاز(٤٠) ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى أن جيوش محمد على هى التى حققت النصر ، بقدر ما كان ذلك راجعاً للسياسة العامة التى اتبعتها الدولة منذ القدم في إسناد إدارة شئون الحرمين الشريفين لوالى مصر ، بخاصة وأن المصاريف التى كانت تتحملها مصر في الإنفاق على المدن المقدسة كانت جسيمة ، ولم يكن يتصور على الإطلاق استتباب الأمور في الحجاز دون وصول هذه المؤن والانعامات من مصر ، ولم تجد الدولة أى غضاضة في إدارة باشا مصر للأمور في الحجاز ، فالحجاز ليس الشام ، فهو الإقليم الفقير الذى يحتاج الكثير من

النفقات ، ولم تهتم الدولة العثمانية به غالباً إلا للمحافظة على الدعاء للسلطان وللمحافظة على هيبة الدولة في العالم الإسلامى ، باعتبارها راعية للحرمين الشريفين ، وللمحافظة على أمن وسلامة قوافل الحج . ولم تكن سيطرة محمد على على الحجاز لتغير من هذه القضايا بل على العكس ، فقد كانت تزيدها رسوخاً ، ومن أجل ذلك فقد فوضت الدولة الباشا في إجراء ما يراه مناسباً في الحجاز .

بعد هذا الإنجاز الضخم بعودة المدن المقدسة تحت سيادة الدولة العثمانية ، قرر محمد على المثول بنفسه إلى الحجاز بعد أن اطمأن على مكانته في مصر بعد اقتران اسمه بتحرير الحرمين ، وإعادة تأمين وصول قوافل الحجيج ، فقرر الذهاب إلى الحجاز بحجة توطيد دعائم النظام ، ولكن الباشا كان يرمى من وراء ذلك إلى تعيين شريف جديد لمكة ، وإعادة تنظيم الحجاز إدارياً[٤١] .

في البداية علينا أن نتساءل عن دوافع محمد على لعزل الشريف غالب خاصة بعدما قدمه الرجل من تسهيلات كبيرة لدخول القوات المصرية إلى جدة ومكة ، ويرى بعض الباحثين أن محمد على كان يرى أن وجود الشريف غالب من أسباب استفحال الدعوة الوهابية ، وأن بقاءه في مركزه قد يحول دون فوز الحملة المصرية وسرعة وصولها إلى غايتها بالقضاء على الوهابيين[٤٢] . وفي الواقع فإن الباشا كان يدرك جيداً أن الشريف غالب أكثر حقداً ونقمة على الوهابيين منه هو شخصياً ، بسبب تقويضهم دعائم حكمه ، كما أن الشريف غالب كان أحد العوامل الرئيسية في نجاح قوات محمد على في هزيمة السعوديين[٤٣] .

لكن الباشا في الواقع كانت له أهداف أخرى تتعارض مع وجود الشريف غالب في الحكم ، فقد كان الشريف غالب شخصية قوية شديدة المراس يصعب على الباشا السيطرة عليها وإخضاعها لنفوذه ، هذا في الوقت الذى كان محمد على في أشد الحاجة إلى الأموال وكان الشريف غالب صاحب ثروة ضخمة كان الباشا يرغب في الاستيلاء عليها أو حتى على جزء منها لفك ضوائقه المالية (قدرت ثروة الشريف غالب بحوالى ٢٠٠٠ كيسة أموال نقدية فقط)[٤٤] ،كما أن الباشا كان يرغب في

السيطرة على دخل جمرك جدة وينبع ، وكانت جدة أهم موانئ البحر الأحمر فقد كانت مستودعاً وسطاً للتجارة بين مصر والهند ، وكان إيراد جمرك جدة من الضخامة بمكان مما جعل الباشا يحرص على الاستيلاء على إيراداتها(٤٥) ، فكانت إيرادات جمرك جدة وينبع في سنة ١٢٣٤هـ / ١٨١٨م حوالى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ بارة أى كانت تعادل تقريباً إيرادات كل الموانئ المصرية ، كما كان الباشا راغباً في احتكار تجارة البحر الأحمر وبخاصة تجارة البن ، وليس أدل على ذلك من قول الجبرتى «وقبضوا أيضاً على وزيره الذى بجدة ، وأصبحوه معهم ، وقلد مكانه في الجمارك شخصاً من الأتراك يسمى على الوجاقلى»(٤٦) . ولم يكتف الباشا بذلك بل أصدر أوامره إلى رجاله بالاستيلاء على الوكالات الموجودة في جدة والخاصة بالشريف غالب وأقاربه وقام بتأجيرها للتجار لحسابه .

ومن المؤكد أن الباشا كان يرى في وجود شخصية قوية مثل الشريف غالب على رأس أسرة قوية تتمتع بشعبية كبيرة وتأييد واسع في الحجاز مثل بنو زيد(٤٧) ـ وهم أصحاب النفوذ الواسع على القبائل العربية ، حيث كانوا يستطيعون إثارة القلاقل والاضطرابات في الحجاز في أى وقت ـ مما يعرقل استقرار حكمه في الحجاز إذا لم يكن رئيس بنى زيد ـ وهو شريف مكة ـ شخصية يمكن السيطرة عليها وتحديد نفوذها ، يؤكد على ذلك أن محمد على بعد القبض على الشريف غالب تعرضت قواته لهزيمة كبيرة في تربه بعد انضمام أشراف بنى زيد والعربان إلى السعوديين فيقول الدحلان «ثم رجع العسكر منهزمين ولم يظفروا بطائل لأن العربان لما وقع القبض على الشريف غالب نفرت طباعهم من محمد على باشا وهاجره كثير من الأشراف وانضموا إلى الأخصام »(٤٨) . ولم يكن الباشا يستطيع تحقيق النصر والنجاح في مهمته إلا باستمالة بنى زيد فقام بتعيين أحد أشرافهم في إمارة مكة(٤٩) ، وكان لابد من استمالة العربان أيضاً فقام بإغرائهم بالأموال والعطايا والهدايا فيذكر الدحلان أن الباشا دفع للشريف راجع الشنبرى ٢٠٠ كيسة لتوزيعها على الأشراف من بنى زيد ، كما رتب لهم المرتبات السنوية ، كما دفع الأموال أيضاً إلى مشايخ العربان(٥٠) .

على العموم فلم تكن عملية اعتقال الشريف غالب سهلة وهينة كما يتصور بعض الباحثين[٥١] ، فقد كان الشريف على أرضه وبين جيشه ، كما كان يستطيع بسهولة إثارة القبائل العربية الضاربة في الحجاز ، وكان الباشا يدرك ذلك جيداً فأراد أن يحدث ذلك دون نشوب أزمات كبيرة . والسؤال عن كيفية إقناع محمد على للشريف غالب بحسن نواياه تجاهه واعتقاله؟ ، خاصة وأن الشريف غالب كان حذراً ويقظاً إزاء أى خطر قد يحدق به من جانب الباشا ، فمنذ بداية وصوله إلى الحجاز عمل محمد على على كسب ود الشريف غالب فكان يعظمه ويقبل يده ، ولم يكن يذهب إليه إلا في القليل من جنوده ، كما تعاهد معه في الكعبة ، وعندما أبدى الشريف غالب تخوفه من وصول الجنود المصريين القادمين من جدة إلى مكة وطلب من الباشا أن يتوجهوا إلى الطائف مباشرة ، وافق الباشا على طلب الشريف ، غير أن الباشا كان قد أعد الخطة للقبض على الشريف غالب بالفعل ، فتظاهر بحدوث خلافات كبيرة بينه وبين ابنه طوسون حيث رحل طوسون مع عدد كبير من قواته إلى جدة ، ومن جدة أرسل طوسون إلى الشريف غالب يطلب إليه الوساطة بينه وبين والده ، فرحب الشريف بذلك وتحدث مع محمد على الذى رحب بوساطة الشريف ، فكتب الشريف غالب إلى طوسون بالحضور إلى مكة ، وفور وصوله حضر إليه الشريف للسلام عليه ، وعند دخول الشريف إلى قصر طوسون أبقى جنوده في الخارج وتم اعتقاله ثم اعتقال باقى أفراد أسرته في أنحاء مكة على الفور ، وترحيل الجميع ليلاً إلى جدة[٥٢] ، ثم إلى القصير ثم إلى القاهرة حيث بقى الشريف غالب بها لمدة ثلاثة أشهر ، قررت الدولة بعدها نقله إلى سالونيك حيث ظل بها إلى أن توفى في عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م[٥٣] .

ومنذئذ كان عزل الشريف غالب من إمارة مكة نهاية لهيبة الأشراف حيث فقد أمير مكة في ظل الحكم المصرى للحجاز كل السلطات الفعلية التى كان يتمتع بها كما سنرى .

كانت الإدارة في اسطنبول ترى أن أنسب الأشخاص لحكم مكة هو الشريف عبد الله بن سرور ، فهو أكبر أبناء الشريف سرور وكثيراً ما ثار على عمه الشريف

غالب مطالباً بالإمارة[٥٤] ، وهو أقوى شخصية في بنى زيد ، لكن محمد على كان يرى في الشريف عبد الله صورة من الشريف غالب ، مما يعوق مصالحه ونفوذه في الحجاز إذا تم تعيينه ، فلم يعر الباشا طلب الدولة اهتماماً ، ولم يكن أمام الإدارة في اسطنبول بعد اقتراب موسم الحج إلا إرسال فرمان الإمارة تاركة محل اسم الشريف فارغاً لتعيين من يراه الباشا مناسباً للإمارة[٥٥] ، فأصدر أوامره في ٣٠ ذى القعدة ١٢٢٨هـ / ٢٠ نوفمبر ١٨١٣م بتعيين الشريف يحيى بن سرور الأخ الأصغر للشريف عبد الله بن سرور في إمارة مكة ، والسؤال عن دوافع الباشا لاختيار الشريف يحيى بالذات سؤال هام .

ففي هذه المرحلة لم يكن الباشا ليخاطر بنزع الإمارة من بنى زيد وهم أصحاب النفوذ الواسع على القبائل العربية في الحجاز بخاصة أن عدوه يتربص به فجيوش السعوديين تستعد لدخول المعارك مع قواته[٥٦] ، فلو نزع الإمارة من بنى زيد لأصبح عليه مواجهة القوات الحجازية والعربان إضافة لقوات آل سعود ، ولم يكن الباشا ليغامر بذلك فوجد في الشريف يحيى بن سرور ضالته المنشودة ، فلم يكن الشريف يحيى ذا أطماع ومطامح سياسية في الإمارة ، وكان من السهل السيطرة عليه ، فعمل الباشا على تحويله إلى موظف في حاشيته إذ سلبه كل سلطاته ومنعه من اتخاذ حرس خاص به ، كما استولى على دخل الإمارة من جدة ، وقام بتعيين مبلغ ٦٥٠٠٠ قرش كمرتب سنوى له[٥٧] ، ثم تم رفع هذا المبلغ إلى ١٠٠,٠٠٠ قرش فيما بعد ، وليضمن ويعرف مصادر ثروة الشريف ودخله من الهبات والصدقات التى كانت ترد إلى الحجاز من جميع الدول الإسلامية[٥٨] ، كان أمين أغا كاتب سر ديوان الشريف أحد أتباعه المخلصين[٥٩] .

ولم يكتف محمد على بذلك بل أجرى بعض التعديلات الإدارية التى سلبت شريف مكة كل صلاحياته ، فكلف الشريف شنبر بن مبارك المنعمى أحد أشراف بنى زيد الموالين له بشئون العربان والأشراف[٦٠] ، وأسند شئون الدفاع والأمن إلى حامية مصرية يرأسها موظف من جيشه وجعله يتلقى الأوامر منه شخصياً ، كما عين من لدنه حكاماً لجدة وينبع وسواكن ومصوع والمدينة وحتى مشيخة الحرم

المكى[٦١] .

وهكذا سلب الباشا شريف مكة من كل مصادر قوته وجعله مجرد موظف تابع له بعد أن كان لأمير مكة طوال العصر العثمانى الإشراف على شئون البدو والعشائر ، والحكم بأمره لا ينازعه في ذلك منازع ، ويجبى الأموال ، ويجمع الضرائب من التجار والقبائل العربية ، وله نصف دخل الجمارك في جدة ، وله جيشه وأسطوله الخاص به[٦٢] ، فشتان ما كان عليه حاكم الحجاز ، وما صار إليه أمره في ظل التدخل الفعلى لمحمد على في الحجاز ، ولم يكن الباشا يقبل الإخلال بأى من هذه النظم التى حددها .

ورغم ذلك بقى مصدر واحد يمثل قوة الأشراف ، وكان المصدر الحقيقى لقوتهم هو علاقتهم بالعربان[٦٣] ، فقد ظل بنو زيد ذوى نفوذ واسع على عربان الحجاز وكان باستطاعتهم في أى وقت إثارتهم ضد من يشاءون ، وعلى الرغم من حرص الباشا على ألا يتجاوز شريف مكة الصلاحيات التى حددها له ، فقد ظل يغض الطرف عن تصرفات شريف مكة طالما ظلت هذه التصرفات بعيدة عن المساس بأمن واستقرار الحرمين ، والتنظيمات الإدارية التى حددها في الحجاز . لكن الشريف يحيى بن سرور الذى كان راغباً في تقوية نفوذه بإيعاز من أخيه الشريف عبد الله بن سرور[٦٤] ، وكان يرى في الشريف شنبر وأمين أغا أكبر العوائق له على ذلك ، فعمل على إبعاد أمين أغا من وظيفته وتعيين أحد أتباعه ويدعى محمد الغزاوى ورغم رفض الباشا إلا أنه تغاضى عن ذلك[٦٥] . ثم مضى الشريف يحيى في سياسته فعمل على التخلص من الشريف شنبر ، حيث أصدر أوامره إلى جنوده بقتله في الحرم المكى في ٢٢ شعبان ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م متعللاً للباشا بأنه كان يتآمر على النظام والأمن في مكة[٦٦] .

وعلى الفور قام أحمد يكن قائد القوات المصرية في الحجاز بمحاصرة الشريف يحيى في منزله وأجبره على الرحيل إلى مصر ، إلا أن الشريف يحيى بدلاً من التوجه إلى مصر اتجه إلى قبائل بنى حرب أقوى القبائل الحجازية طالباً منهم مساندته لاستعادة عرشه المفقود[٦٧] . أمام ذلك أسرع أحمد باشا يكن إلى تعيين

الشريف عبد المطلب بن غالب ، وهو الابن الأكبر للشريف غالب بن مساعد في إمارة مكة ، مستهدفاً من ذلك أن يعمل الشريف عبد المطلب على جمع القبائل العربية للانضمام إلى قواته لمواجهة الشريف يحيى وقبائل هذيل وبنى حرب خاصة وأن الأخير قام في ٢٦ محرم سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م بمهاجمة القوافل التى تحمل إمدادات جنود القوات المصرية واستولى على ٣٥٠ حملاً من الغلال ، إضافة إلى مخصصات الجيش النقدية والملابس المرسلة لهم(٦٨) . كما قرر الشريف يحيى في مساء نفس اليوم ضرب الحصار حول مكة ، ولم يجد أحمد باشا يكن أمام ذلك إلا استدعاء الشريف عبد المطلب بن غالب من الطائف حيث قام مع قاضى مكة بتنصيبه أميراً على مكة بهدف استقرار الأمن والنظام فى مكة والحجاز ، حيث طلب من الشريف عبد المطلب استمالة العربان والتصدى للشريف يحيى ، ثم أرسل أحمد باشا إلى محمد على باشا في مصر يطلب إليه إقرار ذلك . وقد قام أحمد يكن مع الشريف عبد المطلب وعربان ثقيف وعتيبه بهزيمة قوات الشريف يحيى التى انسحبت من حول مكة ، إلا أن محمد على بدلاً من أن يرسل إلى أحمد باشا أوامره بإقرار تعيين الشريف عبد المطلب في إمارة مكة أرسل إليه موبخاً على تسرعه في هذا التعيين دون الرجوع إليه شخصياً من البداية(٦٩) . وكان الباشا قد قرر إبعاد بنى زيد جميعاً عن إمارة مكة لعدم ثقته في ولائهم له(٧٠) ، وحتى لا يعمل هؤلاء على إثارة القبائل العربية ضد حكمه كلما يروق لهم ذلك ، خاصة وأن الأمور أصبحت تسمح له بذلك بعد هزيمة السعوديين وتحطيم الدرعية على يد إبراهيم باشا فى سنة ١٢٣٤هـ /١٨١٨م وخضوع أغلب شبه الجزيرة العربية لسيادته .

أما الدولة العثمانية فقد رأت أن محمد على قد أسدى إليها خدمات جليلة بإعادته لسيادة الدولة على المدن المقدسة ولتأمينه وصول قوافل الحجيج إلى الحرمين ، ولم تكن الإدارة في اسطنبول ترى أى موانع في السماح للباشا بتعيين من يراه مناسباً لهذا المنصب ، فأرسلت فرمان تعيين شريف مكة بدون كتابة اسم الشريف تاركة للباشا أن يحدد من يرغب في تعيينه أميراً على مكة(٧١) . ومن بين اثنى عشر شريفاً تم ترشحيهم من أشراف مكة من قبل معية الباشا(٧٢) ، وقع اختيار

محمد على على الشريف محمد بن عبد المعين بن عون[٧٣] . وقد وقع اختيار الباشا على هذا الرجل بالذات لأسباب منها أن الشريف محمد بن عون قدم العديد من الخدمات إلى الباشا بمساندته لقواته أثناء حربها مع السعوديين ، كما كان الشريف محمد بن عون ذا مقام وشخصية مهابة بين أشراف مكة ، ولم يكن ذا أطماع سياسية واسعة ، هذا إضافة إلى أن الأشراف العبادلة «بنى عون» لم يتطلعوا يوماً للوصول إلى إمارة مكة ، وكان معنى تعيين أحدهم في الإمارة أن يدين هؤلاء بالطاعة والولاء لصاحب هذا الفضل عليهم ، ويعملون على نيل رضاه والتفانى في الإخلاص له[٧٤] .

ولما كان الشريف محمد بن عون موجوداً في القاهرة فقد تم تصعيده إلى القلعة وتم تنصيبه أميراً على مكة في احتفال حضرة الباشا شخصياً في صفر ١٢٤٣هـ / سبتمبر ١٨٢٧م ، وفور علمه بأنباء تعيين الشريف محمد بن عون قام الشريف عبد المطلب بن غالب بجمع أعداد كبيرة من القبائل العربية ، وقام مع أخيه على بن غالب بطرد القوات المصرية من الطائف واتخذها قاعدة لقواته . وأمام هذا الخطر الذى أصبح يهدد بنى زيد بزوال ملكهم وحكمهم على الحجاز والذى استمر أكثر من قرن ونصف القرن رأى الشريف يحيى بن سرور والشريف عبد المطلب بن غالب «أعداء الأمس» ضرورة الاتحاد اليوم ضد العدو المشترك ، الذى راح يهددهما بزوال نفوذ وملك بنى زيد ، فجرى الصلح بين الشريف عبد المطلب والشريف يحيى ، وتعاهدا على طرد القوات المصرية من الحجاز ، وقررا أن تتقدم قواتهم لحصار مكة ، على أن يتولى الشريف يحيى بن سرور مع قبائل بنى حرب محاصرة الجانب الجنوبى من مكة وحراسة طريق جدة مكة لمنع وصول الشريف محمد بن عون إلى مكة ، ويتولى الشريف عبد المطلب مع حوالى ٣٠٠٠ من العربان محاصرة مكة من الجوانب الأخرى[٧٥] .

ونتيجة لتطور تلك الأحداث أرسل أحمد باشا يكن إلى مصر يطلب الإمدادات

والأموال ، كما طلب من الباشا إرجاء وصول الشريف محمد بن عون الذى كان قد وصل إلى ينبع بالفعل ، إلا أن الباشا رفض تماماً فكرة بقاء الشريف محمد بن عون في ينبع ، بل أرسل إلى الشريف يحثه الإسراع في الوصول إلى مكة(٧٦) ، كما أمر على الفور بإرسال الأورطتين الخامسة والخمسين والستين وأرسل سليم بك على رأسهما ، كما أرسل باستدعاء قائده إسماعيل أغا من اليمن ، وصدرت أوامر إلى قره حسن أغا قائد حامية المدينة بالتوجه مع بعض جنوده من المدينة إلى مكة ، وأرسل الباشا ١٥٠ ألف ريال إلى أحمد يكن وأوصاه باستمالة العربان وتوزيع جزء من هذه الأموال عليهم(٧٧) ، ومع وصول هذه القوات الضخمة إلى مكة ووصول الشريف محمد بن عون الذى استطاع الدخول خلسة إلى مكة ، أخذ أحمد باشا يكن في مراسلة زعماء القبائل العربية ووعدهم بالأموال والعطايا وحذرهم من وصول أعداد كبيرة من الجنود من مصر .

عند ذلك أدرك الشريف عبد المطلب بن غالب والشريف يحيى بن سرور مدى ضخامة القوات المرسلة من مصر ، وميل القبائل العربية التى تساندهم إلى الشريف محمد بن عون ، فقاما بالإنسحاب من حول مكة بعد فشلهما في اقتحامها بسبب وصول قوات أحمد يكن إلى الطائف والتحصن بها(٧٨) . وقام الشريف عبد المطلب بتحصين قلعة الطائف وتقوية أسوارها ، وتقدمت القوات المصرية وقوات الشريف محمد بن عون مع بعض العربان الذين تم استمالتهم إلى الطائف وبعد حصار دام حوالى عشرة أيام صوب فيها سليم بك مدفعيته باتجاه قلعة الطائف ، وأمام شدة الحصار ونفاد مؤن وذخيرة الشريف عبد المطلب والشريف يحيى قبلا الأمان والاستسلام بعد أن وعدهما سليم بك في التوسط لدى محمد على باشا للعفو عنهما وتخصيص مرتبات لهما ولبنى زيد وانزالهما المنزلة اللائقة(٧٩) . غير أنهما قاما بالهرب محاولين إثارة القبائل العربية مرة أخرى ، أما الشريف يحيى فبعد مدة من التجوال في الحجاز ، رحل إلى مصر حيث أصدر الباشا عفواً عنه ، ثم جلب عائلته إلى القاهرة واستقر بها إلى أن توفى في ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م(٨٠) . أما الشريف عبد المطلب فقد رفض الحضور إلى مصر واستمر في إثارة القبائل العربية ، فحاول

الباشا التخلص منه باغتياله إلا أنه نجا من ذلك وفر إلى اسطنبول وحاول استصدار فرمان من السلطان بالاستقرار في الحجاز ، غير أن محمد على باشا رفض ذلك بشدة وأوصى الإدارة في اسطنبول بإسكانه في الأناضول والروميلى[٨١] .

وهكذا استبعد محمد على بنى زيد من إمارة مكة وأصبح شريف مكة يرتبط في وجوده في الحكم على علاقته بالباشا وليس على أى شئ آخر ، وأصبح من العادة تقديم الشريف في مكة تقريراً إلى الباشا في مصر بانتهاء موسم الحج يذكر فيه مدى نجاح الحج والمعوقات التى كانت فيه[٨٢] . ولم يعد للشريف أى ارتباط مع اسطنبول سوى الدعاء للسلطان .

ومن أجل دعم مكانة الشريف محمد بن عون الاقتصادية بين ذويه من الأشراف بخاصة أمام بنى زيد وبنى بركات ، ولما كان ذوى عون في وضع اقتصادى متردى لا يسمح لهم بالاستمرار في شرافة مكة لذلك ، قام محمد على باستدعاء الشريف محمد بن عون إلى مصر في سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م بعد أن أظهر ولائه المطلق للباشا في أثناء الأزمة مع الدولة العثمانية ومنحة ٢٠١١ فدان من أراضى البهنساوية في صعيد مصر[٨٣] ، مما جعل شريف مكة وأبناءه من بعده أكثر ولاءاً للباشا ، كما ربط محمد على جميع أشراف مكة بالمؤسسة الحاكمة في مصر فخصص للجميع مرتبات من خزانة الدولة ووضع يد الدولة على أغلب الموارد الاقتصادية في الحجاز ، كما خصص للعربان مبالغ مالية سنوياً مما أدى إلى ارتباط العربان بالدولة وتراجعت إلى حدٍ كبيرٍ تمرداتهم ، أما سكان الحجاز فقد أعاد محمد على توزيع المرتبات النقدية والعينية المخصصة لهم ، وتم قيد دفاتر جديدة بأسماء سكان الحجاز حتى يأخذ المستحقين مستحقاتهم ، وعمل على إنشاء تكيتين أحدهما في مكة والأخرى في المدينة حتى يضمن استقرار الأمور في الحجاز ، حيث يتلقى الفقراء من الواردين والمنقطعين حاجتهم الغذائية[٨٤] .

لقد انطلقت هذه الدراسة من تحليل نظام الحكم في الحجاز قبل التدخل المصرى بناء على طلب الدولة العثمانية ، وثمة ملاحظات ونتائج أسفرت عنها الدراسة يمكن بلورتها في النقاط التالية : فعلى المستوى السياسى ، يمكن القول

بأن الإرث الطويل من حكم الأشراف في مكة جعل من الصعب على آل سعود ثم على محمد على فيما بعد أن يتخلصا من حكم الأشراف في الحجاز تماماً ، إلا أن الباشا أحدث انقلاباً خطيراً في داخل بناء الأسرة الحاكمة من الأشراف ، عندما قام باستبعاد بنى زيد من حكم مكة ، بعد حكم دام قرابة القرن ونصف ، وجاء للحكم ببنى عون مستهدفاً من ذلك ربط البناء الداخلى لنظام الحكم في الحجاز به شخصياً حتى يكون أداة طيعة يسهل تحريكها . فقد عمل الباشا بمركزيته المعهودة على سلب شريف مكة كل صلاحياته السياسية ، وجعل الإدارة في يد رجاله العسكريين والإداريين في الحجاز . وعلى المستوى الاقتصادى فقد سيطر محمد على على أغلب موارد الدخل الرئيسية في الحجاز ، فوضع جميع إيرادات الجمارك في جدة تحت يديه ، وحتى الوكالات التى كان يمتلكها الأشراف فقد فرض سيادة الدولة عليها ، وكذلك الهبات والصدقات التى كانت ترد من أنحاء العالم الإسلامى إلى الأشراف لتوزيعها على الفقراء في الحرمين سلب الأشراف حق توزيعها حتى لا يستقطعوا الجزء الأكبر منها لأنفسهم ، مما جعل أشراف الحجاز تحت نفوذه وسيادته . وقد ظل الشريف محمد بن عون خمساً وعشرين عاماً في حكم مكة حافظ من خلالها على ولائه للباشا حتى بعد انسحاب القوات المصرية من الحجاز بموجب اتفاقية لندن ١٨٤٠م . ونتيجة لحملة محمد على على بلاد الشام فى سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م بادرت الدولة العثمانية إلى عزل الشريف محمد بن عون بوصفه أحد رجال الباشا المخلصين ، وعينت بدلاً منه الشريف عبد المطلب بن غالب في إمارة مكة ، وقد أرسل إلى مكة عن طريق بغداد لأن قوات محمد على كانت تسيطر على الشام ، وعلى الرغم من ذلك فلم يستطع الشريف عبد المطلب أن يصل إلى مكة ، ذلك أن قوات محمد على حققت نصراً حاسماً على جيوش الدولة العثمانية في معركة قونية في عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م ، وبقى الشريف محمد بن عون أميراً على مكة حتى وفاة محمد على باشا إلى أن عزل في عام ١٢٦٨هـ / ١٨٥١م ، وعين الشريف عبد المطلب الذى ظل في منصبه ثلاث سنوات ثم عزل بسبب طموحاته السياسية وعين الشريف محمد بن عون مرة أخرى في إمارة مكة إلى أن توفى في عام ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م .

## الهـوامـش

(١) كلمة الشريف عربية أصيلة وتعنى العلو وجمعها شرفاء وأشراف ، وهم ذوى المكانة الاجتماعية المرموقة ، وقد أطلق هذا اللقب على أحفاد الرسول (ص) المنحدرين من ابنته فاطمة الزهراء وولديها الإمامين الحسن والحسين ، وكان لقب الشريف يطلق على المنحدرين من الإمام الحسن ، أما لقب السيد فأطلق على المنحدرين من الإمام الحسين ، ومنذ عهد هارون الرشيد كان الأشراف والسادة يرتدون جبه وعمامة خضراء تمييزاً لهم إلا أن هذه العادة تراجعت فيما بعد ، إلى أن أصدر السلطان المملوكى الأشرف شعبان في سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م قراراً بضرورة وضع الأشراف علامة خضراء على رؤوسهم وقد أخذ العثمانيون ، بذلك النظام ، كما أخذوا بنظام نقابات الأشراف من المماليك أيضاً ، ومنذ سنة (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) أصبح أولاد الإمام الحسن أمراء في الحجاز ، انظر إسماعيل حقى إوزون : أمراء مكة في العهد العثمانى ، ترجمة خليل على مراد ، مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ، ١٩٨٥ .

(٢) أحمد بن عمر الزيلعى : نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة ٦٤٧- ٩٢٣هـ / ١٢٤٩ - ١٥١٧م مجلة الدارة ، العدد الثالث ،١٩٨٩ ، ١٤٠٩هـ ، صـ ٤١ .

(٣)محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤/١٩١٤م ، مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، صـ ١٢٥ .

(٤) قانون أبى نامى يتكون من ست وثلاثين مادة ، وقد جعل هذا القانون الحكم وراثياً في الأسرة الهاشمية ، وحرم على الأشراف الاشتغال بأية مهنة أو صناعة ، وجعل من الأشراف طبقة ممتازة لها حقوق يجب ألا يمارسها العامة ، محمد نصيف : ماضى الحجاز وحاضره ، مكتبة خضير ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ ، صـ ٢٨٩ .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ، دار الكتاب الجامعى ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م ،صـ ١٣٠ .

(٦) نيقولاى إيفانوف : الفتح العثمانى للأقطار العربية ، دار الفارابى للنشر ، بيروت ، ١٩٨٨ ، صـ ٧٤ .

(٧) تولى الشريف سرور إمارة مكة في ذى القعدة ١١٨٦هـ/١٧٧٣م خلفاً لعمه أحمد بن سعيد وعلى الرغم من توليه الإمارة وهو ابن الثامنة عشرة فإن الشريف سرور كان ذو إدارة ممتازة فاستطاع تأمين طرق الحجيج وشن عدة حملات تأديبية ناجحة ضد قبائل بنى حرب وظل الشريف سرور في إمارة مكة خمسة عشر عاماً ، وبسبب حسن سياسته فإن وفاته كانت مبعث أسى للجميع في الحجاز ومصر بل والعالم الإسلامى كله : انظر عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، جـ ٢ ، صـ ٢٦٤ .

(٨) عبد الرحيم عبد الرحمن : قيام الدولة السعودية الأولى ، دار الكتاب الجامعى ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، صـ ١٣٨ .

(٩) ففى عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م لقى الشريف غالب هزيمة نكراء على أيدى السعوديين في معركة خرمة ، حيث تعرض أغلب جيشه للدمار ، صالح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ ، صـ ١٢٦ .

(١٠) أحمد بن زينى دحلان : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، مطبعة الكليات الأزهرية ، مصر ، ١٣٠٥هـ ، صـ ٢٧٩ .

(١١) أحمد السباعى : تاريخ مكة ، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران ، جـ ٢ ، مطابع دار قريش ، مكة ، ١٣٨٥هـ ، صـ ١٣٢ .
(١٢) عبد القدوس الأنصارى : تاريخ مدينة جدة ، دار الأصفهانى ، جدة ، ١٩٦٣ ، صـ ٧٥ .
(١٣) سعد بدير الحلوانى : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ، صـ ٣١ .
(١٤) عبد الفتاح حسن أبو علية : تاريخ الدولة السعودية الأولى ١١٥٧-١٢٣٣هـ/١٧٤٤-١٨١٨م ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، ١٩٨٣ ، صـ ٥٦ .
(١٥) دار الوثائق القومية : محفظة رقم ١ ، بحر برا ، وثيقة ٥/١ بتاريخ ٨ شوال ١٢٢٢هـ ، محفظة رقم ٢ ، بحر برا ٢ / ٥٤ بتاريخ ٥ محرم ١٢٢٦م .
(١٦) عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، صـ ٢٠٦ .
(١٧) دانيال كريسليوس : جذور مصر الحديثة ، دار الزهراء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
(١٨) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٢٧٥ .
(١٩) حسام محمد عبد المعطى : العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر ، الهيئة المصرية للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ١٤٩ ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، صـ ٢٦٦ .
(٢٠) دار الوثائق المصرية : سجلات الديوان العالى ، سجل ٥ ، صـ ١٤٢ ، مادة ١٢٩ .
(٢١) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثمانى ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩١ ، صـ ٣٩ .
(٢٢) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٢٧١ .
(٢٣) تتألف قبائل بنى حرب من عشر قبائل يبلغ تعداد أصغرها ٥٠٠ نسمة وأكبرها ٣٠٠٠ نسمة وتنتشر هذه القبائل حول ينبع والمدينة وكانت قبائل بنى حرب مكلفة من قبل الدولة بنقل غلال أهالى المدينة المخصصة لهم من مصر ، وكان القائمون بهذه المهمة يسمون «صاحبى درك» أى حماة المرور ، كما كان عليهم أيضاً تقديم خدمات أمنية للحجاج ، وفي مقابل ذلك خصصت الدولة لهم مرتبات نقدية وكميات كبيرة من الحبوب من مصر في كل عام ، إسماعيل حقى إوزون : المرجع السابق ، صـ ١١٩ .
(٢٤) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٢٦٩ .
(٢٥) على معتوق : الحجاز في القرن الثامن عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات العربية ، صـ ١٢٦ .
(٢٦) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ٢ بحر برا وثيقة ٧٦/٢ بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٢٧هـ .
(٢٧) محمد محمود السروجى : البحرية المصرية في العصر الحديث ، ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ ، صـ ٦١٢ .
(٢٨) دار الوثائق القومية : محفظة رقم ٢ بحر برا ، وثيقة ٢ / ٤٧ بتاريخ ٢٧ ربيع أول ١٢٢٧هـ .
(٢٩) عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق ، صـ ٤ ، صـ ٢٧٤ .
(٣٠) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ٢ بحر برا ، وثيقة رقم ٣٥/٢ بتاريخ ٢٠ شوال ١٢١٢٦هـ .
(٣١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، دار المعارف ، ط ٤ ، صـ ١٣٥ .
(٣٢) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ٢ بحر برا ، وثيقة ٨٢/٢ .
(٣٣) محمد محمود السروجى : المرجع السابق ، صـ ٦١٣ .

(٣٤) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ٢ بحر برا وثيقة ٦٢/٢١ بتاريخ ٢٩ جمادى ثانى ١٢٢٧هـ .
(٣٥) عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، صـ ٢٧٤ .
(٣٦) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٢٩٥ .
(٣٧) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ٢ بحر برا وثيقة رقم ٣٥/٢ بتاريخ ٢٠ شوال ١٢٢٦هـ .
(٣٨) أحمد السباعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، صـ ١٤١ .
(٣٩) إسماعيل حقى إوزون : المرجع السابق ، صـ ١٥٦ .
(٤٠) هنرى دود ويل : محمد على مؤسس مصر الحديثة ، ترجمة أحمد عبد الخالق وآخر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، د/ت ، صـ ٤٩ .
(٤١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، صـ ٣٠٢ .
(٤٢) عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق : جـ ٤ ، صـ ٢٧٤ .
(٤٣) طارق عبد العاطى غنيم بيومى : سياسة مصر في البحر الأحمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ١٤٠ ، صـ ١٢٣ .
(٤٤) دار الوثائق القومية : محفظة ٣ بحر برا ، وثيقة ٨١/٣ بتاريخ ٥ جمادى ثانى ١٢٢٩هـ .
(٤٥) سمير عطا الله : الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج «١٧٦٢/١٩٥٠» دار الساقى ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ ، صـ ١٤٧ .
(٤٦) عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، صـ ٣١٠ .
(٤٧) بنو زيد ينتسبون إلى الشريف زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبى نمى محمد ، والذى حكم مكة من سنة ١٦٣٠ إلى ١٦٦٦م أى حوالى أكثر من ٣٥ سنة وقد تولى أبناء وأحفاد الشريف زيد إمارة مكة ومن هنا كانت تسميتهم ببنى زيد وقد تمتع هؤلاء بنفوذ واسع على كل القبائل العربية الضاربة في الحجاز انظر : إسماعيل حقى إوزون : المرجع السابق ، صـ ١١٥ .
(٤٨) أحمد ب ن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٣٠٠ .
(٤٩) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، الطبعة الأولى ، المطبعة السلفية ، مكة ، ١٣٤٩ ، صـ ١٦٥ .
(٥٠) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٣٠٠ .
(٥١) على معتوق : المرجع السابق ، صـ ١٢٧ ، صـ ١٢٨ .
(٥٢) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٢٩٧ .
(٥٣) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ٣ بحر برا وثيقة ١١٥/٣ بتاريخ ١٥ ذى القعدة ١٢٢٩هـ .
(٥٤) إسماعيل حقى إوزون : المرجع السابق ، صـ ١٥١ .
(٥٥) دار الوثائق القومية : بحر برا ، محفظة رقم ١١ ، وثيقة رقم ١١/٧٨ ، بتاريخ ٥ ذى القعدة ، ١٤١٢هـ .
(٥٦) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، صـ ١٦٤ .
(٥٧) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ٣ بحر برا وثيقة ١١٧/٣ بتاريخ ٣ ذى الحجة ١٢٢٩هـ .
(٥٨) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٢٢ معية تركى وثيقة ٣٩٢ بتاريخ ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٤١هـ .
(٥٩) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٢٢ معية تركى وثيقة ٢٣٦ بتاريخ ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٤١هـ .
(٦٠) دار الوثائق القومية : محافظ الحجاز ، محفظة رقم ٩ وثيقة ١١٨/٩ بتاريخ ٢٧ ذى الحجة ١٢٤٠هـ .
(٦١) أحمد السباعى : المرجع السابق ، صـ ١٤٣ .

(٦٢) محمد عبد اللطيف هريدى : شئون الحرمين الشريفين فى العصر العثمانى ، دار الزهراء ، القاهرة ١٩٨٩ ، صـ ٢٨ .

(٦٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : مركزية محمد على الإدارية على وضعية نفوذه في شبه الجزيرة العربية ، ضمن كتاب مصر في عصر محمد على إصلاح أم تحديث ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، صـ ١٦٣ .

(٦٤) إسماعيل حقى إوزون : المرجع السابق ، صـ ١٥٨ .

(٦٥) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٢٢ معية تركى وثيقة ٢٣٧ بتاريخ ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٤١هـ .

(٦٦) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٧٣١ ديوان خديوى تركى ، صـ ٥٩ ، وثيقة ٦٩٣ ، بتاريخ ٢٨ رمضان ١٢٤٢هـ .

(٦٧) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٢ عابدين وثيقة ٢٦٣ بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٤٣هـ .

(٦٨) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ١٢ بحر برا وثيقة ١٢/٦ بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٢٤٣هـ .

(٦٩) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٨ معية تركى وثيقة ٣ بتاريخ ٦ ربيع آخر ١٢٤٣هـ .

(٧٠) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ١١ بحر برا وثيقة ١١ / ٧٧ بتاريخ ٥ رجب ١٢٤٢هـ .

(٧١) دار الوثائق المصرية : محفظة رقم ١١ بحر برا وثيقة ٧٨/١١ بتاريخ ٥ رجب ١٢٤٢هـ .

(٧٢) وهؤلاء الأشراف هم آل شريف سعيد بن سرور ، الشريف عبد المطلب بن غالب ، الشريف على ابن غالب ، آل شريف أحمد بن شنبر ، الشريف عبد الملك بن راجع الشريف ، شرف بن سلطان ، الشريف عبد الله بن فهيد ، الشريف محسن بن مبارك ، الشريف فاخر بن سلطان ، الشريف محمد ابن عون ، الشريف رضوان بن شنبر ، الشريف سعود بن شنبر «حسب ترتيب الوثيقة» المصدر : دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٧٣٣ ديوان خديوى تركى ، وثيقة ٦٠٠ .

(٧٣) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٢ عابدين وثيقة ٢٧٩ بتاريخ ١٠ صفر سنة ١٢٤٣هـ .

(٧٤) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٣٠٤ .

(٧٥) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٢ عابدين وثيقة ٢٨٠ بتاريخ ١٠ صفر ١٢٤٣هـ .

(٧٦) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٣٠٥ .

(٧٧) دار الوثائق المصرية : دفتر ٨ معية تركى ، صـ ٧ ، وثيقة ٦ بتاريخ ٨ ربيع آخر ١٢٤٣هـ .

(٧٨) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٢ عابدين وثيقة ٢٨٦ بتاريخ ٢١ صفر ١٢٤٣هـ .

(٧٩) أحمد السباعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، صـ ١٤٨ .

(٨٠) دار الوثائق المصرية : دفتر رقم ٨ معية تركى ، صـ ٩٠ وثيقة ١٤٠ بتاريخ ١٧ رمضان ١٢٤٣هـ .

(٨١) أحمد بن زينى دحلان : المصدر السابق ، صـ ٣٠٧ .

(٨٢) بناءً على طلب محمد باشا أسكن الشريف عبد المطلب فى بورصة ، وخصص له راتب شهرى قدره ٣٠,٠٠٠ قرش ، إسماعيل حقى إوزون : المرجع السابق ، صـ ٦٩ .

(٨٣) دار الوثائق المصرية : سجلات وقفيات الباب العالى ، س ١ ، صـ ٩٣ ، م ٩٧ بتاريخ ١٢٥٥هـ

(٨٤) دار الوثائق المصرية : سجلات وقفيات الباب العالى ، س ٢ ، صـ ١٤٩ - ١٥٦ ، م١٢٤ بتاريخ ١٢٦٠هـ .